﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾

[المؤمنون: 52 - 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

اتّفاق الرّسل على أكل الحلال وصالح الأعمال يقتضي اتّفاقهم على توحيد الله وتقواه

في ندائه تعالى الرُّسُلَ بالأكل الحلال من الطّيّبات، والأعمال الصّالحات، وأنّه يجب اتّفاقهم على ذلك في الآية السّابقة، بيّن هنا اتّفاقهم أيضًا على توحيده ﷻ في الذّات والصّفات، وعلى اتّقاء معصيته، ولكنّ المشركين تفرّقوا، وذهب كلّ قوم وهو مغتبطٌ بما اتّخذ من دين لنفسه، وهو يظنّه الحقّ، وغيره الباطل[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّتُكُمْ﴾: (أمم) أصْلٌ يدُلّ على تَضامٍّ شيءٍ أو أشياءَ متجانسةٍ، أي لحاق بعضها ببعض في حيّز يحيط بظاهرها بلطف[2]، فالأمّة: كلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواءً كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا"[3]."والأمّة: القرنُ والجيل من النّاس، جماعة كبيرة متّحدو الجنس، أو زمن الوجود معًا"[4]، ومعنى ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ في الآية أنّ الأصل في القوم إذا اجتمعوا على دين واحد أن يُقال لهم أمّة كما يُقال أمّة محمّد ﷺ؛ فهم على أمر واحد، فوَصْفُهم هنا بالأمّة بموجب اجتماعهم على دين وشريعة واحدة[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 281 - 282.
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (امّ)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).
(4) الجوهري، الصحاح، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمم).
(5) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن: 5/ 121.

2) ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾: (قطع) أَصْلٌ يَدُلُّ على معنى الفصل للأشياء، وقد يكون بإدراك البصر كالأجسام المحسوسة، أو بالبصيرة كالمعقولات، والمعنى المحوريّ له: فصل الأجرام الممتدّة شقًّا[1]، ومُنْقَطَعُ كلّ شيء: انتهاءُ غايته، والقطعة: الطّائفة من كلّ شيء، وتقطيع الأمر تقسيمُه، وتقطُّعُ الأمر هو الاختلاف في الدّين مع أنّ الحقّ ﷻ قد أخبرهم أنّ دينهم واحد وأمرهم واحد وهو الإسلام، لكنّهم تقطّعوا واختلفوا، وصاروا أحزابًا وفِرَقًا على غير دين ومذهب واعتقاد واحد[2]، ومعنى ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ أي: أنّهم اتّخذوا الكثير من الآلهة معبوداتٍ لهم؛ فغدا دينهم مقطّعًا قطعًا كثيرة، ولكلّ فريق منهم وطائفة صنمٌ وعبادةٌ من دون الله[3].

3) ﴿أَمۡرَهُم﴾: (أمر) الأمر نقيض النَّهي، والأمر واحد من أمور النّاس، وإذا أمرت من الأمر، فأمّا الواحد من الأمور فقولهم: هذا أمر رضيته، وأمر لا أرضاه، وفي المَثَل: أمرٌ ما أتى بك، والأمر: الشّأن، وجمعه أمور، والأمر: إذا كلَّفْتَه أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عامّ للأفعال والأقوال كلِّها، والأصل في الأمر طلب الفعل، لكنّه قد يطلق باعتبار الحال والبيان، فيشمل ذلك الأقوال والأفعال، ويَرِدُ الأمر بمعنى الدّين الذي جاءهم به نبيّهم[4]، ومعنى تقطيع الأمر بينهم في الآية، أي: أمر الدّين الذي أُمروا به فجعلوه أديانًا مختلفة[5].

4) ﴿زُبُرًاۖ﴾: (زبر) أصلٌ يدلّ على إحكام الشيء وتوثيقه، وعلى قراءة وكتابة وما أشبه ذلك، ومعنى الزُّبْرَة: القطعة من الحديد الضّخمة[6]، ثمّ يستعار للمجزّأ والمقطّع فيقال: زُبَر[7]، ومعنى الزُّبْر "إيقاع التّقطيع على الأمر، وصيرورته زُبُرًا، أي: قطعًا يفسّر بالشيَع"[8]، ومعنى لفظة ﴿زُبُرًاۖ﴾ في الآية، أي: اختلافهم كالفِرَق، وكالقِطَع المختلفة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (قطع).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 298، والعسكري، الوجوه والنظائر، ص: 71، والهروي، الغريبين، ص: 1561.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمر).
(5) الكرماني، غرائب التفسير: 2/ 779.
(6) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (زبر).
(7) الراغب، المفردات: (زبر).
(8) الراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (زبر).

المتباينة، المفرد منها (زبور) بمعنى الفرقة والطّائفة، أو بمعنى الكُتُب على أن المفرد منها (زَبور) بمعنى كتاب[1].

5) ﴿حِزْبٍ﴾: (حزب) أصلٌ يدلّ على التّجمّع مع التّماسك والتكتّل والشدّة مأخوذًا من الحَزْب والحِزْباءِ وهي الأرض الغليظة الشّديدة، ومعنى الحِزْب: أصحابُ المرء ممّن يكونون على أمره ورأيه، ومنه تحازب القوم إذا كان بعضهم لبعض ممالئًا، وكلّ قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزابٌ وإن لم يلقَ بعضهم بعضًا، ويأتي الحزب بمعنى الطّائفة والجماعة من الناس، وجمعه الأحزاب، وجعل الرّاغب الحزب للجماعة التي تتّصف بالغلظة، ويأتي الحزب بمعنى النّصرة في قولهم: فلان يحازب فلانًا، أي: ينصره ويؤيّده ويعاضده، فميزة الحزب التّماسك على الحقّ أو الباطل[2]، ومعنى الحزب في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي: كلّ فِرْقَةٍ افترقت عن الأخرى، وآية ذلك أن دانت كلّ فرقة بكتابها؛ فدانت اليهود بحكم التّوراة، وكذّبوا سواه، ودانت النّصارى بالإنجيل، وكذّبوا سواه[3].

6) ﴿فَرِحُونَ﴾: (فرح) أصلٌ يدلّ على ضدّ الحزن، فأيّ شيء يُفْرِحُك فهو يَسُرُّك، وإذا انشرح الصّدر بلذّة عاجلة سُمّيَ فرَحًا، والغالب أن يكون ذلك في اللّذّات الدّنيويّة، ولا سيّما اللّذات البدنيّة، ومن معاني الفرح الأخرى البَطَر، ويطلق الفرح على عدّة معانٍ في القرآن الكريم كالأشَر والرّضا والسّرور، والفرِحُ من يجد في قلبه خفّة، ولذلك علاقة فإنّ الفرح خروج الغلظ والثّقل من الفؤاد؛ فيصبح الصّدر منشرحًا؛ لتخلّصه ممّا يثقله ويهمّه[4]، ومعنى ﴿فَرِحُونَ﴾ في الآية، أي: معجبون مسرورون كلّ أحد منهم يظنّ أنّه على الحقّ المبين[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر الحقّ ﷻ الرّسلَ جميعًا بأنّ ملّتهم ملّةٌ واحدة؛ فلا تكونوا إلّا على دين واحد،

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 292.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (حزب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 41.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (فرح).
(5) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 2074.

مجتمعون في الاعتقاد، وأصول الشّرائع، وأن تكونوا جماعة واحدة باتّفاقكم على الإيمان، والتّوحيد في عباداتكم، فلا تشقّوا العصا، ولا تخالفوا الكلمة؛ لأنّ ذلك ينافي التّقوى، فما كان من أمم الرّسل إلّا أن تفرّقوا في دينهم، وجعلوه أديانًا كثيرة مختلفة، وكلّ حزب من أولئك فرِحٌ بما ابتدعه من الدّين، ظنًّا منه أنّه على الحقّ المبين، وغيره على الباطل المشين[1].

المِلّة واحدة والتّقوى واجبة فتفرّق النّاس عمّا أُمِروا به، وفرحوا بما وضعوا

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ دالّة على العطف، فقد عطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ فتكون هذه الجملة ممّا قيل للرّسل، أي: قلنا لهم بأنّ أمّتكم أمّة واحدة، ويجوز أن تكون معطوفة على قصص الإرسال من لدن قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 23]، فقد قصّت تلك القصص للاهتداء بها؛ لأنّ شأن الرّسل الدّعوة إلى التّوحيد[2]، ويجوز أن تكون الواو دالّة على الحال، فإنّ الحقّ سبحانه أمر الرّسل بملّة الإسلام الملّة الواحدة، فما كان من المشركين إلّا ركوب طريق الضّلال بأن تقطّعوا أمرهم، وعاندوا الرّسل، ومالوا عن الدّين، وانحرفوا عن طريق الإسلام والتّوحيد، وهو شريعة إبراهيم عليه السلام[3].

عطفٌ على خطاب الرّسل أو على قصص الإرسال

دلالة التأكيد ﴿وَإِنَّ﴾:

أورد الكلامَ مؤكّدًا بـ(إنّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ردًّا على المشركين من أمم الرّسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم، أو المشركين الذين خوطبوا بالقرآن الكريم[4].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 69.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 142.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 70.

تنوّع القراءات في ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾ وبلاغتها:

دينكم واحد فلا تُعدّدوا المعبود واتّقوني ولا تُشركوا بي غيري

قرأها الجمهور ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الهمزة وتشديد النّون، والخطاب يكون للرّسل وللمنذَرين، ويكون التّقدير باللّام (لأنّ)، والمعنى: لكون دينكم واحدًا لا يتعدّد فيه مَن تعبدون، وأنا ربّكم فاتّقون، ولا تشركوا معي غيري، فهو خطابٌ لأمم الرّسل، أو خطابٌ عامٌّ لكلّ من خاطبهم القرآن[1].

وقرأها عاصم وحمزة والكسائيّ وخلف ﴿وَإِنَّ﴾ بكسر الهمزة وتشديد النّون[2]، فالكسر لوقوع (إنّ) في حيز حكاية القول، أو لأنّ الجملة مستأنفة، والمعنى الوارد نفسه في قراءة الجمهور[3].

وقرأها ابن عامر ﴿وَأَنْ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف النّون[4]، فهي مخفّفة من (أنّ) المؤكّدة المفتوحة الهمزة، واسمها ضمير شأن محذوف، والخبر ما بعدها من جملة، فيكون التّقدير (وأن الشّأن أمّتكم أمّة واحدة)، والمعنى نفسه على قراءة الجمهور[5] بتوحيده، ولزوم تقواه، وعدم الإشراك به، فجمعت القراءات الثلاث بين التعليل والتأكيد، للدلالة على أهمية لزوم الأمة الواحدة والحفاظ على وحدتها.

سرّ التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾:

مرادٌ به شريعة كلِّ من الأنبياء أو شريعة الإسلام على الوجهين في المخاطب

بعد أن صدّر الآية بحرف التّوكيد، أعقبه باسم الإشارة بقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ﴾؛ لأنّه أراد باسم الإشارة هذا شريعة كلّ نبيّ من الأنبياء، أو أراد به شريعة الإسلام على الوجهين فيمن خوطب بهذه الآية[6]، وفي إيراده اسمَ الإشارة مؤنّثًا لطيفة؛ فإنّ الإشارة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 69 - 70.
(2) ابن مهران، المبسوط، ص: 312، وابن الجزري، النشر: 2/ 328.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 70.
(4) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 488.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 70.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 70.

في التّأنيث دالٌّ على أمر مستحضر كائنٍ في الذّهن، وضَّحَه الخبرُ والحال، فمعنى التّأنيث، أي: هذه الشّريعة التي أوحيناها إليك هي شريعتك فالتزمها، ولا تغيّر فيها شيئًا زيادة أو نقصانًا، وكان القصد الإخبار عن اسم الإشارة قصدًا إلى الاتحاد بين مَدْلولَيِ الإشارة والخبر؛ لإفادة الثّبات وعدم التّغيير[1].

موقع ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ودلالته:

أمّتكم في حال كونكم جماعة واحدة فمتى تفرّقتم ذهب الوصف عنكم

ويقع قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ موقع الحال[2]، والحال عند النّحويين ما دلّ على الانتقالِ والتّحوّل والتّغيّر[3]، ولمّا أراد أن يكون المعنى أنّها أمّتكم في حالِ كونِها جماعةً واحدةً على دين واحد كالتّوحيد والصّفات والنّبوّات والطّاعات، فإن تفرّقتم في طرق الباطل[4] ذهب هذا الوصف عنكم، وهذا هو شأن الحال أن تكون منتقلة؛ فحَسُنَ التّعبيرُ بها في هذا الموضع، وتقييد الأمّة بهذا بيان أنّ وصف الأمّة الحق لا يكون إلا بتوحيد الله سبحانه والتوجّه إليه وحده دون سواه.

موقع قوله ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ مما قبله ودلالته:

أنا المحسن إليكم بالخلق والرّزق وحدي وبتوحيدي النّجاةُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾، الواو دالّة على الحال، أي: إن كنتم كذلك؛ فالحال أنّني أنا الذي أُحْسِنُ إليكم خَلْقًا ورزقًا وحدي لا يشاركني فيه غيري، فحَرِيٌّ بكم توحيدي؛ ففي توحيدي النّجاة، وفي تعدّد الأرباب الهلاك[5]، وتفرُّد المنعم – كما تدلّ عليه الجملة الحالية – تعليل لوحدة الأمة، فوحدة المنعم تقتضي توحيد الاتجاه والاجتماع على معبود واحد، وسرُّ التعبير بجملة الحالية اسمية بيانُ ثباتِ وصفِ الربوبية له وحده على الدوام.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 71.
(2) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 503.
(3) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 2/ 311.
(4) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 914.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 155.

إيثار لفظ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ مادّةً وصيغةً:

أورد فعل الأمر ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ في خطابٍ عامٍّ للرّسل والأمم، وهو في حقّ الرّسل للتّهييج والإلهاب، وأراده في حقّ الأمم للتّحذير والإيجاب، وكلٌّ من الرّبوبيّة واتّحاد الأمّة موجبٌ للاتّقاء حتمًا[1].

دلالة الفاء في لفظ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ جزائيّةٌ، وفيها دلالةٌ على تضمُّن الكلام معنى الشّرط، فإن كنتم تتقون شيئًا ما فاتقونِ، فإنّ ألوهيّته وربوبيّته والعقائد الحقّة والشّرائع المنزلة لا تختلف عليها العقول السّليمة، وهي موجبةٌ للتّقوى[2].

إن كنتم متّقين شيئًا فاتّقونِ فالعقول السّليمة متّفقة على ألوهيّتي وربوبيّتي

توجيه المتشابه بين آيتي المؤمنون (52) والأنبياء (92):

وذلك بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: 92]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ ، فإنّ للسّائل أن يسأل عن اختلاف كلّ آية فيما ختمت به من الأمر بالعبادة في الأولى، والأمر بالتّقوى في الثّانية؟

الأمر بالعبادة خطابٌ لِفِرَق الباطل والضّلال والأمر بالتّقوى للرّسل والمؤمنين

والجواب عن ذلك أنّ الخطاب في آية (الأنبياء) خطاب للفِرَق التي تفرّقت في طرق الباطل والضّلال، ولم تُخلِص العبادة له وحده تعالى؛ فجاء الأمر بالعبادة، أمّا آية (المؤمنون) فإنّ الخطاب فيها أكثره للرّسل وهم يعبدون الله تعالى، فكان خطابًا للمؤمنين، فأمرهم بالتّقوى والاحتراز بطاعته، والامتناع بموجبات الثّواب عن موجبات العقاب[3].

ومن مناسبة التّذييل بالأمر بالعبادة في آية الأنبياء أنّ السّورة لم يرد فيها لفظ التّقوى من أوّلها إلى آخرها خبرًا أو أمرًا، أمّا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 138.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 188.
(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 917، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 258.

سورة (المؤمنون) فقد ورد فيها لفظ التّقوى ثلاث مرّات؛ فروعيَ في الأولى ما تقدّمها، وبالثّانية ما اكْتَنَفَها.

ومن ذلك أيضًا أنّه أورد الأمر بالعبادة والأمر بالتّقوى على مقتضى التّرتيب؛ فإنّ الاتّصاف بالعبادة سابقٌ على الاتّصاف بالتّقوى مثلما سورة (الأنبياء) سابقة على سورة (المؤمنون)[1].

دلالة الفاء في صدر الآية:

لم تتريث الأمم عقب تبليغ الرّسل فاتّخذت آلهة كثيرة

لَمّا بلّغ الرّسلُ أممَهم بأنّ الدّين واحد، وأنّ الربّ واجب التّقوى، لم يتريّثوا عقب هذا التّبليغ، بل اتّخذوا آلهة كثيرة، وصار أمر دينهم متقطّعًا مشتتًا، فتجد لكلّ فريق منهم صنمًا، ولكلّ فِرْقَة منهم عبادةً خاصّة؛ فكانت الفاء دالّة على التّعقيب[2] وتفيد الفاء التّفريع فضلًا عن التّعقيب؛ لأنّه لَمّا كان الكلام قد سيق مساق الذّمّ؛ فقد تفرّع على ما أمرناهم به من عبادته تعالى وتوحيده أنّهم جاؤوا خلاف ما أُمِروا به، وأتوا عكس مطلوبنا، ليكون الكلام دالًّا على التّعجيب من حالهم، فضلًا عن ذمّهم وتقبيحهم[3].

إيثار الفعل ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ مادّةً وصيغةً:

دلالته على الشّدّة في التّقطّع والمبالغة فيه وفي ذلك ذمّ لهم

أورد فعل القطع مزيدًا مطاوعًا في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾؛ فإنّ فعل التّقطّع مطاوع للفعل المزيد (قَطّعَ) زنة (فَعّلَ) الدّال على الكثرة والمبالغة[4]، فاستعمل فعل التّقطّع هنا متعدّيًا؛ لإفادة الشّدّة في حصول فعل التّقطّع في أنّهم أوغلوا في تفريق دينهم، فجعلوه نِحلًا كثيرة، واتّخذ كلّ واحد منهم له دينًا[5] بعد أن أراده الحقّ سبحانه لهم دينًا واحدًا، وفي ذلك تقبيح وتشنيع عليهم، والأصل

(1) الغرناطي، ملاك التاويل: 2/ 453 - 454.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 64، وابن عصفور، الممتع الكبير في التصريف، ص: 129.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.

في ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾: (تقطّعتم)، لكنّه عدل عن الخطاب المباشر إلى الغَيْبَة على طريق الالتفات، كأنّه ينقل سوء صنيعهم، وما أفسدوه إلى غيرهم، مع تقبيح فعلهم قائلًا:)ألّا ترون إلى هؤلاء وما ارتكبوا من عظيم الفعل الشّنيع)[1].

ويجوز أن يكون فعل التّقطّع قاصرًا غير متعدٍّ، فعندئذٍ قد أسند فعل التّقطّع إليهم على سبيل الإبهام، ثمّ ميّزه بالأمر معرفة على إرادة تقطّعوا أمرًا؛ فقد جعلوا أنفسهم طوائف وفرقًا متعددّة، فعبدوا الكثير من الآلهة كلّ اتّخذ لنفسه إلهًا مع الله[2].

جعلوا أنفسهم فِرَقًا فعبدوا آلهة متعدّدة واتَّخذت كلُّ قبيلة لنفسها إلهًا

مرجعية الضّمير في الفعل ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾:

الضّمير في الفعل ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ راجع إلى الأمم التي تفهم من سياق الكلام، وهم المقصودون من خطابه بأنّ ﴿هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، فهو تصريح بأنّ الأنبياء ومن تبعهم ونجا منهم أمّة واحدة، فالضّمير راجع إلى الأمم ومن نشأ بعدهم[3] الذين قطّعوا دينهم، وصاروا أحزابًا وفِرَقًا.

ضمير الجمع عائد إلى أمم الرّسل ومَنْ نشأ بعدهم

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿زُبُرَۢا﴾:

الزُّبُر جمع مفرده (زَبور) بمعنى الكتاب، وقد استُعير اسم الكتاب للدّين، فشأن كلّ دين أن يكون كتاب لأهله، ولمّا لم يكن لكلّ من هؤلاء الذين تقطّعوا أمرهم كتاب، جعلت الاستعارة هنا تهكّميّة باتّخاذهم لأنفسهم عقائد وأديانًا لو سجّلت لكان ينبغي أن تكون زُبُرًا[4].

موقع قوله: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ﴾ عمّا قبلها، ودلالته:

فصل قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ عمّا قبله؛ لأنّ

زيادة في معنى الذّمّ فهم ليسوا بحال من يفرح

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 183.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73، و: 17/ 142.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 156.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73.

ما سبق قد ساقه الجليل تعالى مساق الذّمّ بجامع مخالفتِهم أمْرَنا، وإتيانِهم عكْسَ مطلبنا، فلمّا أراد زيادة معنى الذّمّ، والإغراق فيه ذيّله بهذه الجملة، والمعنى: كيف يكون لهم الفرح، وهم ليسوا بحال من تكون صفته الفرح[1]، فتقع جملة ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ موقع الاستئناف البيانيّ؛ لأنّه لَمّا تقطّعوا أمرهم زُبُرًا بعد بيان الأمّة الواحدة، وهذا ممّا لا يرضاه عاقل، نشأ عن ذلك سؤالٌ مفاده: وهل رضوا بذلك مع ما كان من ضرره؟ فالجواب عن ذلك أنّهم على تفرّقهم فهم فرحون بما لديهم من الغيّ والضّلال[2]، ويجوز في جملة ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أن تكون تذييلًا لما سبقه من كلام؛ فإنّ التّقطّع سبب لحصول التّحزّب؛ فذيّل بهذه الجملة فكان كلّ فريق منهم جَذِلٌ راضٍ بدينه، والمعنى كلّ حزب منهم[3].

سرّ إضافة ﴿كُلُّ﴾ إلى ﴿حِزْبٍ﴾:

الإضافة تفيد التعميم، وفي التعميم بيانٌ لشيوع الجريمة الذي يترتب عليه الأخذ الشديد، والهلاك العميم.

الغرض من تقديم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ على الخبر:

كـونـه لـديـهـم فتنهم ففرحوا بـه واسـتـغـنـوا عما سواه

الغرض من تقديم الجار والمجرور ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ على الخبر ﴿فَرِحُونَ﴾ بيان عنايتهم بما لديهم من مخالفة محمد ﷺ وكونه السبب في الفرح من تقديم السبب على المسبب.

إيثار لفظ ﴿فَرِحُونَ﴾ مادّة وصيغة:

المبالغة في الفرح عن غير دليل ولا تبصّر بل لمجرّد الـعـكـوف على المعتاد

واستعمل لفظة ﴿فَرِحُونَ﴾ للدّلالة على المبالغة في المسرّة؛ فإنّ (فَرِحٌ) صيغة مبالغة زنة (فَعِلٌ)[4]، والمعنى أنّهم راضون جَذِلون باتّخاذهم طريقتهم في الدّين، وهو فرَحٌ من غير دليل ولا تبصّر ولا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 157.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73.
(4) الرضي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/ 88.

هداية، بل لمجرد أنّهم عاكفون على ما اعتادوا[1]، ولشدّة الفرح منهم بدينهم الباطل دلالة؛ فهو يومئ أنّ ما قطّعوا من الدين الواحد أمر متقرّر لديهم، فلا يرضون من أحد أن يخالفهم، بل ويعادونه، وذلك يفضي تفريقًا وتخاذلًا بين الأمّة الواحدة، وهو خلاف مراده تعالى؛ لأنّ التّحزّب سبب لسقوط الأديان والأمم، وهو من دعوة الشّيطان في أنّه يُلبس على النّاس الباطل في صورة الحقّ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفرح والسرور والضحك:

الضّحك هيئة والسّرور بما فيه نفع والفرح ممّا ليس فيه نفع أو لذّة

عبّر المولى سبحانه عن حالهم بعد أن تقطّعوا أمرهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، فجاء بوصف الفرح، وعَدَلَ عن أوصاف مشترِكة معه في المعنى العامّ من مثل السّرور؛ لأنّ الفرح قد يكون بما ليس فيه نفع ولا لذّة كفرح الصّبيّ بالرّقص والسّباحة ونحوها ممّا فيه تعبٌ ونَصَبٌ وأذى[3]، أمّا السّرور فهو فرحٌ مَشوبٌ بالنفع واللّذة على الحقيقة، أمّا الضّحك فهو يدلّ على الهيئة من انبساط الوجه وظهور الأسنان[4]، ولَمّا كان من شأن المتحزّبين رضاهم وإعجابهم[5] بما ارتكبوا من تقطيع الدّين والملّة استعمل وصف الفرح؛ لعدم مناسبة وصف السّرور، ولا وصف الضّحك لما بان من معانيهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 689.
(4) الراغب، المفردات: (ضحك).
(5) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 483.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»